صفحات من الدبلوماسية الاسلامية

السفارات الخلافيـــة والسلطانية وعلائق الاسلام والنصرانية

للأستاذ محمد عبد الله عنان

منذ نحو عام عرضت فى الرسالة الى موضوع السفارات النبوية ؛ وتبادل السفارات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ، سواء من الاسلام الى الأمم النصرانية ، أو من هذه الى الدول الاسلامية ، من الموضوعات الهامة التى تشوق بتفاصيلها وما تلقيه من ضوء على علائق الشرق والغرب فى عصور لم يكن الاسلام فيها سيد المشرق فقط ، بل كان يساهم أيضاً بنصيب قوى فى سيادة الغرب ذاته . وقد كان لهذه السفارات رسوم وقواعد تتفق مع صولة الاسلام وتلائم روح العصر ، وكان لها فى بعض الأحيان أثر كبير فى توجيه سياسة الاسلام نحو النصرانية ، أو سياسة النصرانية نحو الاسلام . وقد كانت ريح هذه السفارات تتجه بالأخص من الغرب الى الشرق فى عصور القوة والمجد . ذلك لأنها كانت فى الغالب ترمى الى التماس السلام والمهادنة أو تحقيق بعض المنح والمغانم من الاسلام القوى الظافر ، ولكنها كانت فى عصور الضعف والاضمحلال تتجه بالأخص من أمم المشرق الى أمم المغرب التى تتبوأ مقام الزعامة والنفوذ ، وتعمل لتوطيد سيادتها بالضرب والتفريق بين الدول الاسلامية المتنازعة ، كما كانت تفعل الدولة البيزنطية منذ انحلال الخلافة العباسية وتمزق سيادتها بين مختلف الدول والأمارات التى قامت على أنقاضها ، وكما كانت تفعل اسبانيا النصرانية منذ انهارت الخلافة الأموية القوية ، وانقسمت الأندلس الى إمارات الطوائف ، على أن هذه القاعدة لم تكن عامة ، وإنما كانت ظاهرة ملحوظة فقط ، فكثيراً ما كانت تعقد المعاهدات وتتبادل السفارات بين الدول الاسلامية القوية والدول النصرانية القوية تنظيما للعلائق والمصالح المشتركة بينهما

وسنحاول أن نعرض فى هذا الفصل الى طائفة من هذه السفارات الشهيرة التى ترد أخبارها أشتاتاً فى تواريخ الشرق والغرب ، ونرى فيها من أوجه التماثل أحياناً ، ومن أوجه التباين أحياناً أخرى ، مايفسر لنا بعض العوامل التى كانت فى تلك العصور محور العلائق الدبلوماسية بين أمم الاسلام وأمم النصرانية ، ومبعث التجاذب السياسى بينهما

كانت الدولة الأموية دولة الفتح والانشاء ، فلم يتسع وقتها لتنظيم العلائق الدبلوماسية السلمية ؛ وكانت تقف طوال عهدها من جارتها الكبرى — الدولة الرومانية الشرقية — موقف الخصومة والتربص ، فلا نقف فى هذا العصر على كثير من أخبار السفارات المتبادلة بين الدولتين ؛ ولكنا نجد بعد حوادث حصار قسطنطينية الأول وإخفاق الخلافة الأموية فى مشروعها لاقتحام الدولة الشرقية (٥٨ هـ — ٦٧٨ م) سفراء الامبراطور قسطنطين الرابع يستقبلون فى دمشق بحفاوة ليعقدوا مع الخليفة الأموى (معاوية) معاهدة الصلح التى ارتضى بها معاوية أن يؤدى الى الدولة الشرقية جزية سنوية متنوعة كانت على ضآلتها عنوان المهادنة والمسالمة من جانب الخلافة . وفى خلافة سليمان بن عبد الملك تردد على دمشق رسل الدولة الشرقية ليقفوا على أمر الأهبة الهائلة التى تتخذها الخلافة للسير الى قسطنطينية ومحاولة اقتحامها كرة أخرى ، وعاد سفير الدولة الشرقية الى بلاط قسطنطينية يحمل عن أهبة الخلافة أروع الأخبار والروايات

ولما قامت الدولة العباسية وتوطدت أركانها ، وقامت فى نفس الوقت دولة أموية جديدة فى الأندلس ، كانت بغداد فى الشرق ، وقرطبة فى المغرب ، كلتاهما قطباً للتجاذب السياسى بين الاسلام والنصرانية . وكانت مملكة الفرنج القوية قد قامت يومئذ فى الطرف الآخر من أوربا لتتزعم أمم الغرب الى جانب الدولة الرومانية الشرقية ؛ فكان ذلك عاملا جديداً فى إذكاء التجاذب السياسى بين الشرق والغرب ؛ ومنذ خلافة المنصور ثانى خلفاء الدولة العباسية نرى مملكة الفرنج تحاول أن تأخذ بنصيبها فى عقد الصلات السياسية مع زعيمة الاسلام فى المشرق ، وفى اقامة التوازن السياسى فى العالم الجديد ، ونرى ملك الفرنج يبعث رسله الى عاصمة الاسلام الجديدة (بغداد) فى سفارة الى المنصور . ويضع مؤرخو الفرنج تاريخ هذه السفارة فى سنة

٧٦٥ م (١٤٨ هـ) ، وتقول لنا الرواية إن السفراء الفرنجيين لبثوا مدى حين فى بغداد وعادوا بعد ثلاثة أعوام الى فرنسا يصحبهم رسل أو سفراء من قبل الخليفة الى ملك الفرنج ، ونزلوا بثغر مرسيليا ؛ فاستقبل ملك الفرنج سفراء الخليفة أحسن استقبال ، ودعاهم الى تمضية الشتاء فى مدينة متز التى كانت يومئذ منزل البلاط الفرنجى ، ثم دعاهم للتنزه والأقامة مدى حين فى قصر « سلس » على ضفاف اللوار ؛ ثم عادوا بعد ذلك الى بغداد بطريق مرسيليا أيضاً مثقلين بالتحف والهدايا . واستمرت هذه الصلاة السياسية بين الخلافة العباسية ومملكة الفرنج عصراً ؛ وزادت أواصرها فى عصر الرشيد قوة وتوثقاً . وهنا نعطف بايجاز على ذكر تلك السفارات الشهيرة التى تبادلها الرشيد ، وكارل الأكبر أو شارلمان امبراطور الفرنج ولد بيبن ، والتى تنفرد بذكرها الروايات الفرنجية أيضاً ؛ فان هذه الروايات تقول لنا إن شارلمان جرياً على سياسة أبيه ، أرسل الى الرشيد سفارة على رأسها يهودى يدعى اسحاق ليؤكد بينهما الصلات الودية ، وليسعى لدى الخليفة فى نيل بعض الأمتيازات الخاصة بالنصارى والأماكن النصرانية المقدسة ؛ فأكرم الرشيد وفادة السفراء الفرنج وردهم الى شارلمان بهدية فخمة منها فيل وخيمة عربية وساعة مائية وحرائر وعطور شرقية وغيرها ، وبعث الى ملك الفرنج سفراءه بتحياته وتأكيد صداقته . وقد سر شارلمان بنتائج سفارته الأولى ، فأوفد الى الرشيد سفارة أخرى على رأسها مبعوثه اسحاق أيضاً ؛ وتبالغ الرواية الفرنجية فى نتائج هذه المراسلات بين الرشيد وشارلمان ، فتقول إن الرشيد أرسل الى ملك الفرنج مفاتيح الأماكن النصرانية المقدسة ، ومنحه حق رعايتها وحمايتها . وقد وقعت هذه السفارات على ما يظهر فى أوائل عهد الرشيد بين سنتى ٧٨٦ و ٧٩٠ (١٧١ — ١٧٦ هـ) ؛ ولكن الرواية الفرنجية تؤرخ سفارة الخليفة الى شارلمان بسنة ٨٠٠ م ، ولعلها رد الرشيد على السفارة الفرنجية الثانية . ويختلف البحث الحديث فى أمر هذه السفارات والمكاتبات بين الرشيد وشارلمان ، فيؤيد البعض صحتها وينكرها البعض الآخر ، أما نحن فنرجح صحتها(١)

وتستطرد الرواية الفرنجية ؛ فتذكر أن هذه العلاقات الودية بين بغداد ومملكة الفرنج ، استمرت بعد وفاة الرشيد وشارلمان ؛ وأن المأمون ولد الرشيد بعث إلى « لويس » ولد شارلمان وملك الفرنج من بعده سفارة أخرى لتأكيد المودة والصداقة بينهما ؛ وتشير الرواية الفرنجية فى ذلك الصدد إلى ما كان لنفوذ الرشيد قبل وفاته من التأثير فى سياسة خوارج البحر المسلمين وإحجامهم عن مهاجمة الشواطئ الفرنجية والرومانية ، وإلى ما كتبه البابا ليون الثالث إلى شارلمان بعد وفاة الرشيد من أنه إذا كان خوارج البحر المسلمين لايحترمون بعد شواطئ الأمبراطورية الفرنجية ، فذلك لأن نفوذ الخليفة فى نفوسهم قد ذهب بعد وفاته

ونستطيع أن نرجع هذا التقرب بين بغداد ومملكة الفرنج إلى بواعث سياسية لها قيمتها ؛ ذلك أن الدولة العباسية الفتية ما كادت تقوم على أنقاض الدولة الأموية فى المشرق ، حتى بعثت الدولة الأموية فى الأندلس من جديد على يد عبد الرحمن الأموى (الداخل) ، وأخذت فى الاستقرار والتوطد ؛ وكان قيام هذه الدولة الجديدة فى اسبانيا يثير فى الخلافة العباسية ومملكة الفرنج معاً جزعاً ومخاوف جديدة ؛ أما الخلافة العباسية فلأنها كانت تعتقد أنها قد سحقت الدولة الأموية نهائياً واجتثت أصولها وفروعها فلن تقوم لها قائمة بعد فى المشرق أو المغرب ؛ فلما استولى عبد الرحمن الأموى على الأندلس وأقام به ملك أسرته من جديد ، أخذت الدولة العباسية تخشى بحق أن تنازعها هذه الدولة الخصيمة زعامة الاسلام ، أو أن تبلغ من القوة مبلغاً يحملها على التفكير فى مقارعتها ومناوأتها والاغارة على أملاكها الأفريقية ؛ وأما مملكة الفرنج فقد كانت تخشى اجتماع كلمة الأندلس بعد تفرقها مدى حين ، وهو تفرق مهد للفرنج استعادة الأراضى الاسلامية فى غاليس وافتتاح ثغر أربونة آخر معقل للاسلام فى فرنسا ؛ وقيام الدولة الاسلامية الجديدة فى الأندلس موحدة الكلمة موطدة الدعائم يعرض مملكة الفرنج إلى خطر الغزوات الاسلامية كرة أخرى ؛ فكانت مملكة الفرنج ترقب قيام هذه الدولة بجزع ، وتلتمس الوسائل لسحقها قبل أن تستفحل وتغدو خطراً داهماً عليها ؛ ومن ثم كانت سياسة الفرنج فى تشجيع جميع الزعماء الخوارج على عبد الرحمن الأموى ، والعمل على إضرام نار الحرب

(١) نحيل القارىء إلى البحث الذى كتبناه فى هذا الموضوع فى كتابنا «مواقف حاسمة فى تاريخ الاسلام» ص ١٣١ — ١٣٧ والمصادر المذكورة فيه — وراجع أيضاً :
Reinaud : Invasion des sarrazins en Fance p. 92 & 115 — 117

الأهليــة فى الأندلس ؛ وكان اقتحام شارلمان للبرنيه بتحريض الزعماء الخوارج ليحاول افتتاح شمال الأندلس ؛ ومن ثم كانت هذه العلائق والمراسلات الدبلوماسية التى تبادلتها الخلافة العباسية مع مملكة الفرنج ، ولم تكن بلاريب بعيدة عن الفكرة المشتركة فى التعاون على سحق الدولة الأموية الجديدة فى الأندلس

وكانت ثمة فكرة مماثلة تحمل الدولة الأموية فى الأندلس والدولة البيزنطية خصيمة الدولة العباسية ومناوأتها فى المشرق على عقد التفاهم والصلات الودية ؛ فكانت بين أمراء بنى أمية وقياصرة قسطنطينية مراسلات وسفارات سياسية هامة . ففى سنة ٨٣٦ م (٢٢٥ هـ) بعث الأمبراطور تيوفيلوس إلى عبد الرحمن بن الحكم أمير الأندلس سفراءه بهدية فخمة ورسالة يدعوه فيها إلى التحالف ، ويرغبه فى ملك أجداده بالمشرق ؛ وكانت هذه المحاولة الدبلوماسية من جانب قيصر قسطنطينية على أثر اضطرام الخصومة والحرب بين الدولة العباسية والدولة البيزنطية وعيث المأمون ثم المعتصم فى أراضيها . فرد عبد الرحمن ابن الحكم على القيصر بهدية فخمة وبعث اليه سفيره يحيى بن الغزال ، وهو من كبار الدولة وفحول الشعراء فأحكم بينهما الصلة والتحالف . على أن علاقة الأمبراطور بصاحب الأندلس لم تتعد المراسلة والمجاملة ، لأن خلفاء عبد الرحمن الداخل حافظوا على سياسته التى رسمها من الامتناع بالجزيرة والاقتصار على توطيد ملك بنى أمية فيها ، حتى عهد الناصر إلى تغيير هذه السياسة والتدخل فى شئون المغرب لظروف وحوادث عرضت يومئذ

ونعود إلى علائق الدولتين العباسية والبيزنطية ، تاج العلائق بين الاسلام والنصرانية فى تلك العصور ؛ ففى أواخر القرن الثامن كان على عرش قسطنطينيــة امرأة وافرة الذكاء والعزم هى الأمبراطورة إيرينى زوج الأمبراطور ليون الرابع ، وكانت وصية على ولدها قسطنطين أثناء طفولته ؛ ولكنه لما كبر وحاول أن يقبض على زمام السلطة ، ناوأته وقاومته حتى ظفرت به ، وزجته إلى ظلام السجن بعد أن سملت عيناه بأمرها ؛ فانتهز المسلمون فرصة هــذه الاضطرابات وغزوا آسيا الصغرى مراراً حتى اقتربوا من البوسفور ، وقاد هارون (الرشيد) وهو يومئذ ولى عهــد أبيه المهدى بنفسه معظم هذه الحملات ، فاضطرت إيرينى إلى التماس الصلح ، وبعثت رسلها إلى هارون ، وهو بمعسكر بجيشه على مقربة من البوسفور ، تطلب الصلح والمهادنة ؛ فأجابها الرشيد إلى ما طلبت ، وعقدت بين الفريقين معاهدة تعهدت إيرينى بمقتضاها أن تدفع إلى الخلافة جزية سنوية مقدارها سبعون ألف دينار ، وتبادل الرشيد والأمبراطورة بهذه المناسبة بعض الهدايا والتحف الملوكية (٧٨٢ م ـ ١٦٦ هـ) ، ولما تولى الرشيد الخلافة بعد أبيه ، كانت إيرينى قد خلعت وجلس على عرش قسطنطينية نيكيفروس (ويسميه العرب نيقفور) كبير الخزائن ؛ فما كاد يجلس على العرش حتى بادر باعلان الخصومة على الخلافة وبطلان معاهدة الصلح ، ورفض أداء الجزية والمطالبة بما أدى منها ؛ وتنقل الينا الرواية الغربية صورة الانذار الذى وجهــه نيكيفروس على يد سفرائه إلى الرشيد وفيه يخاطب الرشــيد بما يأتى : « من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب ، أما بعد فان الملكة التى كانت قبلى أقامتك مقام الرخ وأقامت نفسها مقام البيــدق ، فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقاً بحمل أضعافه اليها ، لكن ذلك لضعف النساء وحمقهن ، فاذا قرأت كتابى هــذا فاردد ما حصل لك من أموالها وافتد نفسك بما تقع به المصادرة لك ، وإلا فالسيف بيننا » ؛ وألقى سفراء الروم أمام عرش الرشيد حزمة من السيوف إشارة باعلان الحرب ، فغضب الرشيد لهذه الجرأة أيما غضب ؛ وكتب بنفسه على ظهر كتاب ملك الروم ما يأتى : « من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم ؛ أما بعــد فقد فهمت كتابك يا ابن الكافرة ، والجواب ما تراه لا ما تسمعه والسلام » [1] ، وبادر الرشيد إلى غزوا آسيا الصغرى على رأس جيش ضخم ، فاجتاحها حتى هرقلية (٨٠٦م) فاضطرب نيكيفروس إلى طلب الصلح ، وأرسل إلى الرشيد سفارة على رأسها أسقف سينادا ، وعقدت بين الفريقين معاهدة جديدة ، يتعهد فيها القيصر باصلاح الحصون المخربة ، وبأن يدفع جزية سنوية قدرها ثلاثون ألف دينار ، وأن يدفع عن نفســه ثلاث قطع ذهبية من نوع خاص وثلاث أخرى عن ولده عنواناً لخضوعهما لأمير المؤمنين

(للبحث بقية)

محمد عبد الله عنان
المحامى

(١) وتورد الرواية العربية نصوصاً أخرى لهذين الكتابين ـــ راجع ابن الأثير ج ٦ ص ٦١ ـــ وصبح الأعشى ج ٦ ص ٤٥٧ ـــ وتنقل الرواية البيزنطية هذه الرواية ، ولكنها لاتؤيدها من عندها ـــ راجع :
Finlay : Byzantine Empire Ch. II — I